الدكتور محمد عزيز الحبابي

محاولة تحديد «شخصانية» اسلامية

نقتصر في هذا البحث على تعريف الشخص وتحديد احواله ومصيره، معتمدين على ما يمكن استنباطه من القرآن والسنة، مجتنبين دراسة الآثار الخاصة التي خلفها مفكرو الاسلام في الموضوع، لان امثال هذه البحوث تتعلق بما يسمى بالنزعة الانسانية، اكثر مما تهم «الشخصانية» (1).

واننا، اذ نقتصر على الكتاب والسنة في بحثنا، نتناول بالدرس الاسلام قبل اتصاله بالثقافات اليونانية والفارسية والهندية، واحتكاكه بالديانتين الاسرائيلية والمسيحية .

هكذا نصل الى ابراز مقومات «شخصانية»، هي في صميمها شخصانية اسلامية اصيلة محض .

* * *

صدر عن دار المعارف بمصر، الكتاب التكريمي للدكتور طه حسين، بمناسبة مرور سبعين سنة على مولده، والى جانب كبار المستشرقين الغربيين، والمفكرين المرموقين بالشرق العربي، ساهم الاستاذ العميد الدكتور محمد عزيز الحبابي، بالدراسة الآتية، تقديرا منه لشيخ الادب العربي الشهير، فيسر مجلتنا ان تعيد نشر هذه الصفحات تعميما للفائدة شاكرة الدكتور الحبابي ودار المعارف موافقتهما على ذلك .

(1) اننا نفضل استعمال هذه الكلمة لسببين : اولهما انها ماخوذة من كلمة «شخص» التي توافق تماما كلمة personne (كما يتضح فيما بعد) وثانيهما ان العبارات التي استعملت حتى الآن، للدلالة على الشخصانية تعد غير ملائمة : «فالفردية» تقابل كلمة individualisme من individu «فرد» وهو لا يتوفر على الوعي النفساني والاجتماعي الذي يتميز به الشخص اما «الذاتية» فتقابل moïté «الانية» وهي في مستوى عميق من حيث السيكولوجيا، وضئيل من الناحية الاجتماعية

1

المفاهيم الاولى

الاسلام مجموعه احوال لكيان الشخصيه. ولكي يحيا الانسان حياة المسلم يجب عليه، قبل كل شيء، ان يعي انه كل من شعور وضمير، وهذا الكل متجسم، مندمج في العالم، وملتزم بالبحث عن حقيقته كانسان، فعلى عاتق كل واحد منا، بصفته متجسما، واعيا، وملتزما، ان يغير ما بنفسه، ويغير ما بالعالم تغييرا مصلحا في جميع الميادين، ووفقا للقوانين التي ارتضاها الله .

لقد كان شعور المرء بنفسه عند العرب، في العصر الجاهلي شعورا مضطربا، يعكره نوع من مركزية النواة المنحلة في «انانة» معشرية او عصبية قبلية. ومنذ ظهور الاسلام، تغيرت هذه الوضعية : فاصبح للمؤمن شعور قوي بانه جزء من الامه، والامة تتجاوز الافراد والقبيلة والعرق، وبمقتضى هذا، اصبح المسلم مسؤولا فرديا عن جميع اعماله امام الله، الكائن المطلق وامام البشر اجمعين، الذين ليسوا الا امثال بعضهم، وإخوة، اذ هم جميعا مخلوقات الله الكائن الكل».

نشاهد هنا، بالنسبة للعصر الجاهلي ثروة وثورة في معنى الشخصية من حيث التوسع والعمق، اذ ان الاسلام بتحطيمه الحدود الضيقة للعصبية ، وبابداله بالقبيلة الامة، يعطي للانسان اتساعا لا حدود له، حيث انه دين شمول : «وما ارسلناك الا رحمة للعالمين» (21 : 156) وفي آية اخرى : «انا ارسلناك للناس بشيرا ونذيرا» 34 : 28) .

وللشخص إبعاد توسعية وعمقية، للاولى حتما تاثيرات مباشرة على الثانية: اذ كلما توسع الافق الجماعي، وتوسعت معه الاكتسابات الجديدة في اختلاف انواعها، وقع نمو في الحياة النفسانية والثقافية (2) .

وبما ان جميع البشر مخلوقات الاله الاحد، فهم اشخاص متماثلون وليس الفرق بينهم فرقا نوعيا، كما هو عند ارسطو حين يجعل العبيد «آلات متحركة» كانها اشياء . بل الفرق في الاسلام فرق قيمة ذاتية فحسب، فهناك المؤمنون وغير المؤمنين من كافرين، ومشركين، ووثنيين. والرسالة

---

2) انظر، فيما يتعلق بالابعاد العمقية والابعاد التوسعية، كتابنا :
De l'Etre à la Personne, essai de personnalisme réaliste, Paris, P. U. F., 1954.

الالهية، اذ تتوجه الى كل من هؤلاء تعترف بمساواتهم النوعية. وتعطي بالتساوي لكل شخص قيمة ذاتية. فليس هناك اذن نوع منحط من الاشخاص ونوع مرتفع، بل ذوات متساوية امام الله وامام المجتمع. على ان للمؤمن وغير المؤمن قوى شخصية تخول كليهما، سواسيا، تغيير وضعيته من حيث الايمان والكفر. ولا ينتقل كائن من حالة الفرد الى حالة الشخص الا بقدر ما تتأكد فيه مطامح انسانية، مثل الايمان والردة والشك واليقين، او كل تغيير، أو كل موقف ينخذ عن تأمل وتبصر.

2

الشخصية واستقلالها الذاتي

ان الشخص في جوهره قوة مبادهة واختيار : يلتئم، ويندمج، ويختبر، ويقبل او يرفض. وهذه هي الصفات اللازمة للاعتراف بالاستقلال الذاتي للشخصية. لقد كانت منذ القرن الاول في الاسلام طائفة المرجئة تعرف الايمان بانه اعتقاد باطني. فلا يزول ايمان المرء، في نظرهم، ولو اظهر الكفر قولا او فعلا او باتباع الملة اليهودية او النصرانية في دار الاسلام، ما دام متيقنا، يقينا باطنيا، ان لا اله الا الله. ان ابن حزم ينسب هذه النظرية لجهم بن صفوان، بل وحتى الائمة سنيين، وعلى رأسهم الاشعري : «ان جهما والاشعري يقولون ان الايمان عقد بالقلب فقط، وان اظهر الكفر والتثليث بلسانه وعبد الصليب في دار الاسلام بلا تقية (3)».

ومعنى هذا ان الايمان، هو قبل كل شيء، الاعتراف بوحدانية الله واستقلاله المطلق، فيجب على المؤمن، اي الفرد الذي يعترف لله بهاتين الصفتين، أن يعترف كذلك لنفسه، وبكيفية تناسبه، انه هو الآخر واحد ومستقل. ومفهوم الاستقلال هنا، هو ذلك الشيء الخاص بكل شخص، وواقع فرديته، اذا قلنا باستقلال الاشخاص، فمعناه اننا نؤكد ان لا وجود لنموذج انساني، او لقالب يفرغ فيه جميع الاشخاص، ليكونوا على نمط واحد، اذ لكل شخص وجهته وتطلعاته الخاصة، وهي منبع لا ينضب من التلقائية

(3) ابن حزم، الفصل ص 88، ج 2، القاهرة سنة 1347 هـ.

والمبادهة : «ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات !» (2 : 148)، وفي آية اخرى (17 : 83) : «قل: كل يعمل على شاكلته، فربكم اعلم بمن هو أهدى سبيلا». وورد في هذا المعنى الحديث المشهور : «اعلموا، فكل ميسر لما خلق له» (البخاري، الصحيح). فهذا الحديث يقر بأن لكل شخص معطيات طبيعية، لكنها لا تستثمر الا بالعمل.

تبتدىء الشخصانية عندما يرفض الشخص الطاعة العمياء، طاعة الاشخاص، وطاعة الاشياء، ويعترف بالقيمة العليا للعقل والروح. والاعتراف بهذه القيمة ليس معناه قبول المخاتلات، او السماح لعقول الآخرين بالاستبداد ولا الخضوع الاعمى الذي يفرضه مذهب من المذاهب، ولو كان دينيا : «لا إكراه في الدين» (2 ـ 256) .

لهذا لا تقبل في الاسلام أية وساطة، كليريكية او غيرها، بين الناس وربهم : «واذا سالك عبادي عني فاني قريب، أجيب دعوة الداعي اذا دعان» (2 ـ 186).

يعد كل شخص نسخة من صنع الله، ولكنها نسخة فريدة.

فمثل العالم الانساني كمثل كتاب عظيم غير متناه، تتجاذب اوراقه، وتتكامل، مع اختلافها واستقلالها وترابطها في هذا الاستقلال. فنحن هنا بعيدون، كل البعد، عن الذهنية البدوية العربية، ذهنية العصر الجاهلي، التي لا تتصور الكائن الانساني الا داخل مجموعة، شريعتها العصبية القبلية، حيث يعد افرادها كنسخ يطابق بعضها البعض، على وجه التقريب، فكان الشخص يذوب في القبيلة. ولم تكن العصبية القبلية لتعترف بالتضامن والعلاقات الودية الا فيمن تجمعهم رابطة الرحم، من قريب او بعيد.

ولقد كانت واقعية العصبية مبنية على تقديس الجد المشترك. وبقي هذا الميز سائدا حتى في الايام الاخيرة، من العصر الجاهلي، حيث اجتيزت حدود القبيلة، شيئا ما، مع عدم تفهم الشخصية الانسانية في معناها الشامل فكان هناك فرق بين العربي الذي يعد نفسه حرا مثل المواطن الاثيني، وبين العجمي او الاجنبي الذي يجوز، طبعا، استرقاقه، وهو ما يماثل البرابرة عند الرومان، مثل الغاليين والسيثيين والبارثيين والافارقة. فسقراط يتحدث عن روح الفرس والكلب، ثم ينتقل الى روح العبد، كانه يجد بينهما صلة طبيعية بديهية! (4) والاسلام، على عكس هذا، يعتبر كل كائن انساني

4) انظر افلاطون، هيبياس الصغير، 375.

شخصا، بقطع النظر عن عرقه، ولغته، ولونه، اذ لا فرق بين العربى والعجمى (5) .

ولنستمع الى بعض ما جاء فى «خطبة الوداع» الشهيرة، حيث يقف النبى بين آلاف المؤمنين ويقول :

«ايها الناس ! ان دماءكم، وأموالكم، عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم (...) وانكم ستلقون ربكم، فيسالكم عن اعمالكم... (6)». كما يصرح النبى فى خطبة القاها بباب الكعبة (نظر ابن هشام، ج 4 ص 32) : «الناس من آدم، وآدم من تراب» فالاختلافات العرقية ليست الا آيات لقدرة الله الذى، «ومن آياته خلق السماوات والارض، واختلاف السنتكم والوانكم...» اليست اللهجات والالوان والاعراق الا مجرد اختلافات شكلية، عرضية، لغاية عملية؟ «يا أيها الناس، انا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا». فلا فخر اذن باللون، او الانتساب لاية عشيرة، اذ يزيد القرآن : «ان اكرمكم عند الله اتقاكم...» «49 – 23 (7) .

نخرج، مما تقدم، بفكرة عن ذلك الواقع الحى، الغنى الجوانب الذى هو الشخص، ولنحاول قصد تفهمه، او على الاقل قصد التبصر بعدة من مظاهره، ان ننظر اليه من جوانب شتى .

3

من المفهوم الى الكلمة

إذا اعتبرنا الدور المهم الذى لعبته اللغة العربية، بصفتها لغة القرآن والثقافة الاسلامية، وجب ان ندقق هنا فى بعض مفرداتها التى لها مساس بمفهوم كلمة «شخص»،

5) ورد فى القرآن الجذر، ع، ج، م، اربع مرات، دون قصد ازدراء او احتقار: (26 – 10) و (41 – 44، مرتان فى هذه الاية) و (26 – 198).

6) عبد الملك ابن هشام، سيرة النبى، القاهرة، ج 4، ص 275 .

7) التقوى : من الجذر: و، ق، ى، لا ينحصر مدلولها فى المعنى الدينى المحدود (اى القيام بالشعائر، او الزهد) بل تدل الكلمة على كل نشاط يدفع السوء عن النفس وعن الغير (الغير فى معناه المطلق)؛ فيكون اذن العمل من اجل الصلاح، الخاص او العام، وقاية، اى تقوى وقد اتجه نحو هذا المعنى بعض المفسرين حيث فسروا التقوى، بمعنى صيانة النفس من كل ما يؤذيها، وحفظها مما يؤلم (انظر : آل عمران 28)

ان كلمة فرد (التي تقابل كلمة جماعه) تطلق علـى الاشياء كما تطلق على الكائنــات (8) .

وهناك لفظة «شخص» تدل، مثل ما تدل الكلمة اللاتينية (9) persona (القناع) على المظهر الجسماني، الخارجي للانسان، او على شبحه الظاهر، أي ظلــه.

أليست في الحقيقـة كلمة persona بالنسبة للواقع، الا ظلا، ومجرد كائن مسرحي مقنّع (احيانا بقناع المأساة، واحيانا بقناع المهزلة) ؟

بيد ان مدلول «شخص» يزداد، في الاسلام غنى ودقة في آن واحد، اذا اصبح الفرد لا يسمى شخصا الا اذ انضمت الى فرديته امتدادات، مثـل:

العرض : وهو ما يستحق ان يدافع عنه المرء او يحفظه من كل دنس، اى الفضيلة، والروح، والسمعة والشرف .

والحسب، وهو القيمة، والنبل، سواء كـان مكتسبا بجهود شخصية او مــوروثـا .

والنسب : وهو الاصــل والانتســاب بالوراثـة لعصبة او عنصر ما.

من هذا يلزم، في دراستنا للشخصية، ان نراعي جـانبين اساسيين : جانبا جسمانيا خارجيا، وجانبا معنويا نفسيا .

لقد تبنى الاسلام محتوى كلمة «شخص» فـزاده قوة، وادخله في نطاق الفقه والمعاملات .

إنـنـا لنجده فــي زمان النبي، وقد تجرد من كل الأساطير، وتخلى عن اثقال المعتقدات الطوطمية، فجسم في الكتاب والسنة حقيقة جديدة، خاصة، مميزة حتى أصبح «الشخص» موضوعا للأحكام الشريعة، بصفته كائنا مسؤولا عن فعاليه، اذ يقوم باعمال تنطبق عليها أحكام الدين، والاخـلاق، والمجتمع، ويعد ذاتا، لها حياة مستقلة.

هكذا تطورت كلمة «شخص» توسعـا وعمقـا، مثل مقابلها في اللغة اللاتينية persona فمفهوم هــذه اللفظـة تفتـح هو الآخر، بفضل تطوراته

---

8) كلـمـة مستـعـملـة فـي الـقـرءان : (6، 94) و (19، 80 و 95) و (31، 89)، و (34، 46) .

9) كلمة شخص مـن الجـذر: ش، خ، ص، : برز وظهر (يقال للاشياء) او بدا (يقال للاشباح) النظر بالحاح : «شاخصة ابصارهم» (14، 42 و 31، 79) او تصور و شرح (اشخص: اى اعطى نظره).

العديدة، منذ الكلمة الاتريسكية (10) فيرسو phersu الى الصيغة الفرنسية personne في معناها الحالي .

أطلقت كلمة persona في البداية على القناع، ثم صارت تدل، منذ عهد شيشرون، على «الدور» الذي يلعبه الانسان المقنع في التمثيلية. ثم خضع هذا المفهوم لتغييرات جديدة منذ فجر المسيحية (11) .

* * *

اننا لنرتكب خطأ اذا استنتجنا من وجود كلمة phersu اتجاها ونوايا شخصانية. ذلك ان الاتريسيين كانوا، مثل اليونان، يقربون القرابين البشرية لآلهتهم، بخلاف ما أتت بهم الديانات الابراهيمية (اليهودية والمسيحية والاسلام) التي ابدلت القرابين البشرية بالاضاحي الحيوانية.

ولا يمكننا كذلك، أن نقول بوجود شخصانية عند الرومان لمجرد استعمالهم كلمة persona . فلقد سادت في المجتمع الروماني الاستقراطية، الى ابعد حد من الفظاعة (12)، كما سادت العنصرية في قوانينهم واعرافهم التي كان العبيد، بل وكثير من الاحرار، ضحية لها. فمهنة «المصارع» le gladiateur مثلا، التي لم يرتضها، ابدا المواطن الروماني، كانت مخصصة للعبيد والاسارى، وحتى للاجانب الاحرار من جرمانيين، وسوريين، وبربر.

لقد انحصر دور المصارع، شيئا ما، في دور حيوان للعب، لا يصلح الا لتسلية الرومانيين.

كان المرشحون في الوظائف العمومية يكترون المصارعين من جمعيات مخصصة للدعاية والاشهار، كما تكرى الخيول، لان حفلات التسلية من الوسائل المستعملة للدعاية الانتخابية .

اما في الاسلام، فالفرق الوحيد الذي يمكن اعتباره، هو التمييز بين المؤمن وغير المؤمن، على ان كلا منهما يعد شخصا، يساوي جميع الناس من حيث الكرامة الانسانية وقداستها، فلكل شخص قابلية فطرية للايمان، وقدرة اندفاعية طبيعية على الشك، فالبشر كلهم من جوهر واحد، كما يقول الحديث : «كلكم من آدم، وآدم من تراب» .

10) نسبة الى Les Etrusques سكان اطريريا (ناحية من نواحي ايطاليا ينتسبون الى شعب نزح من آسيا الصغرى)

11) لا نذكر هنا الاشواط التي قطعها معنى «شخص» طوال العصور وفي مختلف الثقافات والاديان، انظر كتابنا : De l'être à la personne ص 66 – وما تبعها باريس 1954

12) انظر في كتابنا Liberté ou liberation الفصل الذي يدرس «التملك»

ان النبيين انفسهم من ذات الطينة التى تكون منها سائر الناس، فهم ايضا اشخاص، واشخاص لا اكثر : «اوعجبتم، ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم، لينذركم ولتتقوا، ولعلكم ترحمون ؟» (7 ـ 62)، «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ...» (3 ، 142) ، «لقد جاءكم رسول من انفسكم، عزيز عليه ما عنتم...» (9 ، 227) (13)

كلما تحدث القرآن او السنة، عن الجنس البشرى، استعملا كلمتى «انسان» او «آدم» (ابى البشرية)، فلا يفضلان عصبة او عرقا ما : «لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم» (95 ـ 4)، اى ان الانسان بصفة مطلقة كنوع، لا كمنتم لامة، او قبيلة، أو أسرة معينة. وبعد ان خلق الله الانسان الذى يعد اشرف الكائنات واعزها، لم يلق بهذا الابداع السامي فى هاويه من النسيان، وعدم الاكتراث، بل احاطه بجليل عنايته : «وهو معكم اينما كنتم » .

«ولقد خلقنا الانسان وتعلم ما توسوس به نفسه، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد» (50 ـ 16) .

ان الله مع الانسان، فى كل مكان وزمان، فى السراء والضراء، فالاسلام يعتبر الـ «انا» شعورا ووعيا، كأنه من نور الله، وعلى العكس من هذا فى العصر الجاهلى، لم يكن «الانا» مركزا فى داخله، بل مشتتا على الخارج، اى انه منعدم الذاتية، حسبه المشاركة فى ذاتية قبلية مشاعة، لا يصل الى درجة الوعى، لان شعوره كان يذوب فى شعور جماعى غير محدد، قانونه العصبية الضيقة المحض :

وهل أنا من غزية، إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

لم يكن العرب اذن، قبل الاسلام، يعرفون مدلول «شخص» ولا اللفظة نفسها، اذ هى كلمة وضعها مفكرو الاسلام فيما بعد (اخوان الصفاء، ابن سينا) .

* * *

يبدو من الآيات القرآنية ان الجذر ش. خ. ص. كان معروفا فى معناه القديم، كما رأينا. اما كلمة «شخص» هذه فلم تكن موجودة، مطلقا، للتعبير عن المعنى المعروف عندنا. كانت لفظة «وجه» تدل على معنى الشخص فى القرآن، وهذا ما يؤكد قرابته بكلمة persona (التى تدل على المظهر الخارجى)

13) انظر كذلك : (33، 40) و (48، 29)

فلنتتبع تطور معنى «وجه» في اللغة العربيـة، لنتفهم بكـل وضوح، المراحل الاولى الغامضة التـي قطعها معنى «شخص» حتى نصل الى المفهوم الواضح الذى حصل عليه في الاسلام .

فمن المدلول المادى لكلمة «وجـه» (قـرآن 13 ـ 92) نصل الى المدلول المجازى (يدل الوجه على النظر في القـرآن : 2 ، 143 ، ومن 147 الى 149) وبما ان الوجه يعد اشرف ما في الكائن، صار يـدل علـى الكائـن كله في اتساع معناه (14) .

وهذا ما يذكرنا بالكلمة اليونانية prosopon التى دلت، أول الامر، على وجه (مثل face الفرنسية)، ثم على قناع (قارن بين هذا وبين persona اللاتينية). وبعد ذلك بكثير اكتسبت معاني اخرى، منها : «ظهور» و «صورة» (قارن ذلك في العربية بـ «ظل»)، واخيرا دلت على الوجـه، ثم على الشخص .

وجاءت في القرآن عبارة «وجه الله» للدلالة على الذات الالهية : «أينما تولوا فثم وجه الله» (15). كما تستعمل نفس الكلمة في القرآن، للدلالة على الشخص الانساني (16) .

فالشبـح، او الظـل، او الكائن الذى يصعب تمييزه وتحديد هويته، يعد فردا او كائنا، ولكنه ليس بكائن معين. فالخصائـص الشخصية، لكل انسان، توجد في وجهه : فعلى الوجه تبـدو الملامـح، والسن، وما تحتوى عليه بعض النظرات ـ احيانا ـ من معان («تبـوح العيون بسر الفؤاد») . وفي الوجه ايضا الانف الذى هو رمـز الكرامـة والانفة : «اخضاع الانف» هو الاذلال. فلا غرابة اذن أن يجدع بعض المقاومين الجزائريين انف خونة القضية الوطنية في بلادهم. ويروى السيد يوسف شلحود ان عرب الكويت يقطعون ارنبة السارق، اقتصاصا منه لانه رجل لا كرامة له (17) .

وفي الوجه اداة التفـاهم التـي تعد مـن اهم ما في الكائن الانساني : فباللسان يتصل المرء بغيره، وبه يتكلم ويؤدى الشهادة .

14) نجد هذا المعنى في عبارة «كرم الله وجهه»؛ والوجهاء هم القوم الذين يقدمون للنيابة عن غيرهم فعيسى بن مريم «وجيها فـي الدنيـا والآخرة ومن المقربين» (قرآن 3، 44) وموسى «كان عند الله وجيها» (33 ، 69).

15) انظر : (2، 115 و 272) و (13، 226) و (30 ـ 37 و 38) و (55 ـ 25) و (72، 9) و (92، 20) .

16) انظر الآيات : (2 ، 112) و (6، 156 ـ) و (22،) و (30 ، 30) (31،).

17) انظر : R. d'Histoire des Religions, T. CLI, N° 2, Paris 1957.

هكذا نرى كيف حصل اشتراك في الدلالة بين وجه وشخص، ويمكننا ان نذكر هنا، علــى سبيل الشبه، ما كتبه موس Mauss عن بعض المجتمعات البدائية : إذا امتنع احد رؤساء العشيرة من القيام باحدى التزاماته، قيل عنه : «إن وجهه متعفن»، لان اهل الشمال الغربي بأمريكا يعتبرون ضياع السمعة بمثابة ضياع للروح او فساد للوجه. ومن اضاع دم وجهه «فقد اضاع حقه في حمل الروح ولبس الشعار، والانتساب للطوطم (18) .

لم يقع الفصل بين «وجه» و «شخص» في سائر الثقافات الا مؤخرا ، فلا توجد فكرة بدائيــة مباشرة عن «الشخص»، بل على العكس، ليس هناك الا ما يحملنا على الاعتقاد أنها فكــرة مكتسبــة جــاءت مؤخرا، بعد تطورات كثيــرة .

هكذا فرضت كلمة «شخص» نفسها، فصارت تدل على الكائن الانساني بأجمعه، لان محتواها المعنوي حصل، في الجو الاسلامي، على كثافة جديدة، ومتانة خاصة بينما بقي مدلول «وجه» محصورا فــي معنــاه المادي، رغم ان الوجه اشرف ما في الانسان .

* * *

وبعد ما تعرفنا على الرابطة التي تجمع بين «وجه» ومدلــول «شخص» يلزمنا الآن ان نحلل كلمات اخرى لها مساس بمفهوم شخص .

و «ذات» تدل على «الجوهر» وكثيرا ما تعنــي، في الفلسفة، «الفرد» غير ان هذين المعنيين جاءا متأخرين، ولفظة «فرد» نفسها (التي تقابل كلمة جماعة) تطلق على الكائنات الحية، كما تطلق علــى الاشيــاء الجامدة. ومن جهة اخرى، فان لفظة «ذات» لا تختص بالشخص الانساني فحسب، بل تطلق كذلك على الاشياء. فالقــرآن يقول : «انه عليم بذات الصدور» (3 — 119) اى بخفايا العقل والقلب (19) وتصف آية أخرى السماء بـ «ذات البــروج» (85 ، 1) كما نجد ان النار «ذات لهب» (111 ، 3)

فلفظة «ذات» تعبر عن اوصاف متصلة بكائنات، لا على جوهر وذاتية الكائنات. وهذا ما يبعدنا عن المدلول الفلسفي : «جوهـر» ، وعــن الحقيقة الحية التي هي «الشخص» بمعناه المحدد . فمدلول «ذات» ينحصر في التعبير عن حالة أو عن كيفية لا تتصلان، فــي الغالــب، الا بأشيــاء مادية. والقرآن

18) L'Année Sociologique I, 1923-24, p. 102

19) انظـر كـذلـك : (3 — 154) و (5 — 7) و (8 ،43) و (11 — 54) و (31 ، 23) و (35 ، 38)

يعطينا على ذلك امثلة، منها ما يتعلق بالاشياء من حيث مكانها : «وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم، ذات اليمين، واذا غربت تقرضهم، ذات الشمال .... ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال...» (18 ، 18 – 17)، او وصف للمكان : «وجعلنا ابن مريم وأمه آية، وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين» . (23 ، 50) (20) .

هذه الاسباب ترغمنا على ان نرفض «ذاتية»، التي يستعملها بعض الكتاب المعاصرين، لترجمة كلمة personnalisme فمحمد إقبال، مثلا، يسمى مذهبه الفلسفي «خودي»، ويقصد بهذه الكلمة النزعة الشخصانية «21» . ولقد عرب بعضهم «خودي» بـ «ذاتية» . ومنهم عبد الوهاب عزام، في ترجمته لديوان اقبال : بيام مشرق (ص 41) .

إن لفظة «شخصانية»، في نظرنا، اقرب الى الصواب من «ذاتية» السنا نرى ان لفظة «شخص» تنحصر في الدلالة على الانسان، في حين ان كلمة «ذات» يشترك فيها الانسان، والحيوان، بل وحتى الاشياء ؟ نقول الرجل ذاته، والحصان ذاته، والورقة ذاتها .

* * *

وهناك لفظان آخران لهما علاقة ماسة بموضوعنا : «امرؤ» «وانسان». وبما ان الكلمتين لا تدلان على «الشخص»، حسب المعنى المحدد اصطلاحا، فاننا نترك الحديث عنهما الى دراسة عن النزعة الانسانية في الاسلام .

ومنذ القديم، احدثت لفظة «انسان» مشكلة لدى المثقفين العرب، فنكتفي بالاشارة الى ما رواه ابن حزم، في هذه القضية، حيث حكى النزاع الذى حصل بين من يدعى ان «الانسان» لا يطلق لا على الجسم وحده (مثل ابى الهذيل العلاف)، وبين من يقول بانه يختص بالنفس وحدها (قول ابراهيم النظام)، وبين من، على عكس ذلك، يرى ان «انسان» يطلق على الوحدة التى يؤلفها الجسم والنفس معا. وبعد عرض افكار هؤلاء، ختم ابن حزم حديثه قائلا : ان «انسان» يطلق على الجسم (ألا يبقى الميت انسانا ؟) كما يدل على الروح، لانها نواة الاحداث الشعورية، والملكات المختلفة،

20) انظر كذلك (34، 16) و (54 – 13) و (55 – 11 و 48) و (59 – 7 و (58 – 1 و 5) و (96 – 11 ، 12) و 7 (89 –)"

21) انظر كتابه : «أسرار خودي» (الترجمة الانجليزية) *The Secrets of Self*, translated by R.A. Nicholsoln, Lahore 1920.

والامزجة. وأخيراً نعبر بـ «إنسان» عن وحدة الجسم والروح، إذ أن كل واحد منهما يرتكز على الآخر (22) .

نستخلص، من هذه المحاولة الموجزة، ان مفهوم «شخص» اكتسب، منذ فجر الاسلام، معاني كثيفة، حية، مليئة. لم يكن لهذه اللفظة، في العصر الجاهلي، مدلول محدد، لكنها بفضل تعاليم الاسلام، حصلت على محتوى متين واضح، فصارت معانيها، تدريجيا، تزداد دقة وتحديدا، فنتج، منذ ذلك العهد، انقلاب شامل في الذهنية العربية، أخرجها من الصور الجماعية الشاملة اللامحددة الى التعقل الفردي وإلى الوضوح والوعي .

ومنذ هذه المرحلة. لم تعد القبيلة هي الحقيقة الوحيدة ذات القيمة الفذة، بل أصبح كل عضو من العشيرة (بصفة شخصية) ـ دون اعتبار السن أو المكانة، او الجنس ـ يشعر بوجوده كشخص، يحمل كرامة، وقيما، لا عن طريق العصبية القبلية، ولكن لانه شخص وكفى : اذ انه الحقيقة الاولى الداعمة للكرامة لا تهان. انه من المخلوقات التي سوى الله بينها، وكرمها على بقية ما في الكون، فهو اذن اشرف المخلوقات واعزها : إنه «شخص» .

22) الفصل، ج 5 ص 41، القاهرة 347 هـ.